

أعلام العرب

٥٩

المأمون

الخليفة العالم

بقلم

الدكتور محمد مصطفى هداره

الدار المصرية للتأليف والترجمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

يعتبر المأمون من أعظم الشخصيات الحاكمة التي نعتز بها في تاريخنا العربي ، فقد ظهر في فترة ازدهار علمي كانت بداية لتفتح ينابيع الثقافة العربية التي ظلت مؤثرة في حضارة العالم قرونا طويلة . وظهر في فترة حرجة كانت تهتز فيها الخلافة العربية أمام أطماع الشعوبيين وأصحاب النحل والعقائد الشاذة الذين لا يريدون الخير للعرب ولا للإسلام .

وكان المأمون بطلا في مواجهة مشكلات عصره من الناحيتين السياسية والحربية ، ولكن جهده الأكبر الذي ظل باقيا يشهد بفضل دفعه للحركة العلمية بما وهبه الله من حرية الفكر واتساع الأفق والمحبة والتقدير للعلم والعلماء .

ثم كان المأمون بعد ذلك كله قوة صامدة أمام مغريات عصره لا يجرفه تيارها ولا تهتز عواطفه أمام سلطان عقله ، فاذا انضافت الى ذلك صفات نادرة قلما تجتمع في شخصية واحدة ، أدركنا أن المأمون جدير بالكتابة عنه لا كشخص فرضه علينا التاريخ ، ولكن كإنسان فرض نفسه على التاريخ واستحق أن يوضع في أكرم مكان من صفحاته .

وقد كتب كثيرون عن المأمون ، ولكنني لم أجد فيما كتبوا صورة كاملة للإنسان نفسه ، وكان السرد غالبا على كتاباتهم والاضغراق

فى تناول عصر المأمون ومشكلاته دون جلاء صورته ذاتها ، ولهذا
اهتممت بهذه الناحية ، وصرفت إليها عنايتى ، واستطعت – بقدر
ما أسعفتنى المصادر التاريخية – أن ألمم جزئيات صغيرة فتصير
صورة واضحة المعالم لشخصية المأمون أولاً ولعصره والتطور
الأدبى والعلمى فيه ثانياً ، وأرجو أن أكون قد اقتربت من الغاية
التي نشدتها ، والله الموفق لسواء السبيل .

محمد مصطفى هدارة

الاسكندرية فى أول يناير ١٩٦٦

الفصل الأول

صورة العصر

لعل من أهم العوامل المؤثرة في الحياة الاجتماعية منذ القرن الأول حركة التقريب الجنسي التي أخذت سبيلها منذ بدء عصر الفتوح عن طريق السبى وهى نتيجة مباشرة لحركة الفتح ، وعن طريق الزواج بالكتابات الفارسيات وغيرهن من الأجناس الأخرى ، وعن طريق الموالى وهم الأعاجم الذين أسلموا وكانوا عاملا هاما خطيرا في نشر اللغة العربية في المناطق المفتوحة ، وفي التقريب بين العنصر العربى والعناصر الأخرى .

والحقيقة ان سيل العناصر الفارسية بالذات كان من القوة في القرن الأول وما تلاه ، بحيث كانت اللغة الفارسية تحتل مكان الصدارة في العراق وفي خراسان ؛ وفي هذه المناطق التي كانت تتكلم الفارسية أصلا .

ومع هذا كله كانت عوامل التقريب تعمل عملها في ادماج هذه العناصر المختلفة ومحو أسباب التنافر فيما بينها ، حتى اذا أوشك القرن الأول على الانتهاء ، كان المجتمع الاسلامى قد ظهرت ملامحه واتجاهات حياته وخصائصه بوجه عام . ففي خراسان - كما في غيرها من المناطق المفتوحة - نجد ان العرب الذين هاجروا اليها واستوطنوها قد تأقلموا في وطنهم الجديد ، وأحسوا أنهم جزء منه ، وبذلك اندمجوا في حياته الاجتماعية اندماجا كاملا حتى أنهم

كانوا يلبسون السراويل كما يلبسها أهمل خراسان ، ويشربون النبيذ ، ويحتفلون بعيد النيروز والمهرجان ، ويشاركون في كل مظهر كان الخراسانيون يجعلونه سمة لمجتمعهم . ولم يكن معنى هذا ذوبان الجنس العربى القليل العدد في المجتمعات المحلية للأقاليم المفتوحة ، ولكن كان معناه اندماج العرب في حياة هذه المجتمعات ، وسرعة انتشار اللغة العربية وآدابها أيضا . ويبدو ان انتشار حركة التشيع في العراق وخراسان بصفة خاصة قد ساعد على سرعة اندماج العرب والأعاجم في تلك المنطقة .

ومما لا شك فيه أن العرب - بدرجة تحضرهم المحدودة - لم يستطيعوا أن يتجنبوا المؤثرات الحضارية القوية التي تسلطت عليهم من الحضارتين البيزنطية والفارسية على السواء ، وكانت أرقى حضارتين في العالم في ذلك الوقت ، فأقبلوا على ما فيهما من فخامة وأبهة في الثياب والدور والمأكل والمشرب وأفانين اللهو والاستمتاع بالملذات ، لهذا وجدنا فتى عربيا كيزيد بن معاوية - وهو بعد قريب من عهد الرسول - يقبل على الخمر اقبال النهم حتى انه كان يسمى « يزيد الخمر » ، كما يقبل على الصيد وأنواع الملاحى غير متحرج ، يقول المسعودى في ذلك : « وكان يزيد صاحب طرب وجوارح وكلاب وقرود وفهود ومنادمة على الشراب . . وفي أيامه ظهر الفناء بمكة والمدينة واستعملت الملاحى وأظهر الناس شرب الشراب . . وكان له قرد يكنى بأبى قيس يحضره مجلس منادمته ، وي طرح له متكا ، وكان قردا خبيثا ، وكان يحمله على اتان وحشية قد ريضت وذلت بسرج ولجام ، ويسابق بها الخيل يوم الحلبة ! » وهذا النص - ان صح - يطلعنا على التحول الكبير الذى طرأ على شكل المجتمع الاسلامى منذ وقت مبكر من القرن الاول الهجرى ، وهو يشير الى بدء تحلل المجتمع من ارتباطه بالدين والحياة الاسلامية التى أخذ بها نفسه في عهد الرسول والخلفاء الراشدين ،

ويقول ثون كريمير في ذلك « انه على الرغم من تحريم القرآن أدخلت في بلاط الخلفاء الأمويين عادة شرب الخمر في زمن متقدم ، شربوا أولا عصير العنب المغلى (الطلا) أو شرابا مأخوذا من اليونان سموه بالاسم اليونانى (رساطون) . ويشير نص المسعودى أيضا الى بدء انغماس المجتمع في المظاهر الحضارية التى تصاحب اتساع رفعة الدولة وتدفق المال اليها من كل جانب ، وما مظاهر الحضارة الا هذه التى أخذ بها أمثال يزيد بن معاوية أنفسهم ، فالحضارة كما يقول ابن خلدون « تفنن في الترف واحكام الصنائع المستعملة في وجوهه ومذاهبه من المطابخ والملابس والمباني والفرش والأبنية وسائر عوائد المنزل وأحواله ، فلكل واحد منها صنائع في استجداته والتأنق فيه ، وهى تتكثر باختلاف ما تنزع اليه النفوس من الشهوات والملاذ ، والتنعم بأحوال الترف وما تتلون به من العوائد » .

وهكذا أخذت الحياة الاجتماعية العربية تتعقد بتأثرها بحضارات مختلفة ، وأصبح شرب الخمر فيها والعكوف على اللذات شيئا طبيعيا ، ومظهرا من مظاهر الحضارة في هذا العصر . ولم تكن دمشق - عاصمة الخلافة الأموية - وحدها عاكفة في جانب من جوانبها على هذا النوع من الحياة ، لأن تغير المجتمع الاسلامى لم يكن تغيرا اقليميا محليا ، بل كان تغيرا واسعا شاملا ، لهذا نرى قسما من المجتمع في الكوفة والبصرة يعيش على الشهوات والمتعة واللهو والشراب ، بل حتى الحجاز نفسه تعرض لهذا التغير الاجتماعى ابان القرن الأول فازدهر فيه الغناء والإيقاع وفنون اللهو والعبث ، وكان فيه من يقبل على الشراب أيضا كابن هرمة وغيره . ويقول الأصفهاني انه حتى في أيام عثمان كان ابن سريج يفتنى (وكان عوده على صنعة عيدان الفرس ، وهو أول من ضرب به على الغناء العربى بمكة) . وقد بلغ تعلق الناس بأنواع الفنون

واللهو حدا كبيرا نستطيع أن نتمثله فيما رواه الطبرى اذ قال :
أتى هشام بن عبد الملك برجل عنده قيان وخمر وبربط . فقال :
اكسروا الطنبور على رأسه ، وضربه ، فبكى الشيخ ، فقال له
أحد الجالسين يعزيه : عليك بالصبر ! فقال : أترانى أبكى
للضرب ، انما أبكى لاحتقاره للبربط اذ سماه طنبوراً (١) .

وما ان بلغ القرن الأول غايته حتى كان تيار اللهو والمجون
قد اتخذ مجرى له في حياة الجماعة الاسلامية ونستطيع أن نتمثل
مدى ما وصل اليه في شخصية الوليد بن يزيد ، تلك الشخصية
التي يعتبرها طه حسين مظهر الحياة الجديدة التي أخذت تظهر في
أول القرن الثانى للهجرة ، ويصوره بأنه كان مشغولاً أشد المشغف
بنوع جديد من الحياة المادية والعقلية ، وأنه كان متعلقاً أشد
التعلق بهذا النوع من الحضارة الجديدة . ولكن أى نوع من المظاهر
كان لتلك الحضارة الجديدة ؟ لقد كانت تتمثل في امعان الوليد
وكثرة من أهل عصره في التحلل مما يفرضه عليهم دينهم . فقد
وقر في نفوسهم بعد انصالهم بألوان الحضارة المختلفة أن الحرية
الدينية معناها أن يفعل كل امرئ ما يحب وما يشتهي دون أن
يخشى ملاماً أو رقيباً . فما يمنع من الشراب اذن والتفنن في
مجالسه ؟ وما يمنع من الإباحة الاجتماعية في كل صورها وأشكالها ؟
ما الذى يمنع الوليد من أن يصنع قبة على قدر الكعبة ويحاول أن
ينصبها فوقها لتصير مجلس شراب من نوع مبتكر جديد ، يجلب
له المتعة واللذة لمجرد احساسه بأنه يمارس حريره الدينية التى
كفلتها له الحضارة الجديدة ؟ ! وما الذى يمنع الوليد من أن يرسل
الى الكوفة في طلب خلعاتها وشعرائها الماجنين فيسمع منهم من

(١) البربط المود معرب لفظة بربط الفارسية ومعناها صدر الأوز لأنه يشبهه،
والطنبور آلة أخرى معرب لفظة دنه بره الفارسية ومعناها آلية الحمل لأنه
يشبهها .

ألوان المجون ما يطرب له ويسكر عليه ؟ وهو اذا شاء أن يستمتع بالغناء بعث بريده الى المدينة في طلب معبد ، فاذا جاء دمشق . هيئت للوليد بركة خمر وماء ، حتى اذا انتشى من الغناء وأخذ الطرب بمجماعه ألقى بنفسه في البركة فنهل منها نهلة ، ثم أتى بأثواب غيرها وتلقاه الخدم بالمجامر والطيب . والوليد لم يكن يستحي أن يسخر وسائل الدولة وأجهزتها في تلبية مطالب لهوه ، واستجابة لهواه ولذته ، فهو يكتب الى والى خراسان ليمعث اليه برابط وطنابير .

أما ملابس الوليد وطبقة السراة في المجتمع فقد تأنقوا فيها أشد التأنق ، وتغالوا بها أشد المغالاة ، حتى بلغ من تأنقهم أنهم كانوا يلبسون عقود الجواهر ويغيرونها في اليوم مرارا ، كما تغير الثياب شغفا ، ويبدو أن فتنة الوليد بمظاهر الحياة المادية واغراقه فيها ، كانت على مبدأ (أطيب اللذات ما كان جهارا بافتضاح) الذي شاع فيما بعد في العصر العباسي ، ولكن هذا المبدأ صدم الشعور العام ، ونجح منافسو الوليد في تهيئة أذهان الناس لاثورة عليه ، غضبا لله وللدين ، كما جاء في قولهم له : ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله وشرب الخمر ونكاح أمهات أولاد أبيك واستخفافك بأمر الله .

وقد حاول بعض الباحثين من القدماء والمحدثين الدفاع عن الوليد بن يزيد باعتبار أن أغلب الروايات التي صورت لنا إباحيته مكذوبة ، ولكنني أرى أن الوليد كان صورة صادقة لما وصلت اليه ناحية من الحياة الاجتماعية في عصره ، من عكوف على اللذات وانكباب على اللهو .

وما لنا ننكر على الوليد هذه الحياة العابثة ، ولاننكر على كثير من معاصريه ممن لم تتح لهم الفرص التي أتاحت للوليد فعاونتته

على اللهو والعبث ، من السلطان والجاه والأموال ، فهذا هو الطبرى يروى لنا قصة تمثل الحياة الاجتماعية في بداية القرن الثانى - حوالى العصر الذى عاش فيه الوليد - يقول فيها : انه عندما هزم مروان بن محمد سليمان بن هشام بن عبد الملك ، أمر بقتل كل الأسرى ما عدا العبيد ، فأتى بخال لهشام يقال له خالد بن هشام المخزومى - وكان بادنا كثير اللحم - فأدنى اليه وهو يلهث ، فقال له : يا فاسق ، أما كان لك فى خمر المدينة وقيانها ، ما يكفك عن الخروج مع الخراء تقائلنى ؟ قال : يا أمير المؤمنين ، أكرهنى فأنشدك الله والرحم ! قال : وتكذب أيضا ؟ كيف أكرهك وقد خرجت بالقيان والزقاق والبرابط معك فى عسكره ؟

الى هذا الحد اذن وصلت الحياة الاجتماعية فى أواخر العصر الأموى وبداية العباسى ، وبطبيعة الحال لا يمكننا أن نقول ان هذه الصورة تمثل تماما طبقات المجتمع العربى بجميع أفرادها فى ذلك العصر ، ولكنها على أية حال تعطينا فكرة واضحة عن تيار وجد فى هذا المجتمع ، ولعله أثر فى أغلبية أفراده على تفاوت هذا التأثير بينهم . وهذا لا ينفى وجود فئة جادة مقيمة على دينها ، محافظة على تقاليدها ، حتى مع غناها وثروتها ، كما أن هذا أيضا لا ينفى وجود طبقة أخرى من الفقراء المعوزين أو متوسطى الحال الذين كان يشغلهم فى هذا المجتمع كفاحهم فى سبيل الحصول على أسباب الحياة ، فما بالك بفقود الجواهر وما أشبه ؟ ومع هذا فدارس العصر يخرج بنتيجة مؤكدة تتصل بهذا الحديث ، وهى أن التهلك والمجون لم يتناسبا طرديا مع الفنى والجاه ، وعكسيا مع الفقر والمتربة ، فهذا التناسب لا يمكن أن يكون حقيقيا فى أى مجتمع انسانى . فقد نجد معوزا يشتهى كسرة خبز ، ومع ذلك فهو أكثر تهتكاً من الخليفة الوليد بن يزيد نفسه ذى الجاه والسلطان والأموال ، والعكس قد يكون صحيحا أيضا . والسبب فى هذا

يرجع - في رأيي - الى عناصر معينة في شخصيات أفراد المجتمع ، كما يرجع الى طبيعة بيئتهم ونشأتهم ومدى تأثرهم بالدين ، ومقدار خضوعهم للمؤثرات الحضارية . وعلى أية حال كانت المؤثرات والعوامل التي تدعو الى التهلك والفتنة على نطاق واسع شائعة ميسرة في هذا العصر . فالمجتمع العربي كان يتكون من طبقات ثلاث شأن أى مجتمع : عليا ، ووسطى ، وسفلى . ولكل داخل هذه الطبقات كانت توجد عناصر مختلفة في مكانتها الاجتماعية ، وفي الدور الذي تقوم به في مجتمعها . كانت هناك فئة من العرب تدفقت عليهم الأموال من كل جانب : من الفتوح ومن العطاء ومن التجارة والزراعة ، وكانت هناك فئة أخرى من العرب تعيش حياة متوسطة وتكسب عيشها من أى سبيل : الخدمة في الجيش أو المتاجرة البسيطة ، أو ما أشبهه . وكان هناك غير العرب الموسرين وغير الموسرين طبقة الموالي بالعتاقة أو بالولاء ، وهؤلاء كان عددهم ضخما في المجتمع الاسلامى ، وكان دورهم فيه يتناسب مع ضخامة عددهم . وقد كون هؤلاء الموالي مع العرب عدة روابط متشابكة في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، وأقبل العرب على الزواج من نسائهم - فتوثقت الصلة بين الفريقين وامتزجت العادات والثقافات .

وكان هناك عدا العرب والموالي طبقة الرقيق ، وهى طبقة هامة جدا ، على الرغم من هوان شأنها في المكانة الاجتماعية ، اذ كان تأثيرها خطيرا جدا في المجتمع الاسلامى . لقد انتشر الرقيق بأجناسه المختلفة انتشارا عظيما على أثر الفتوحات الواسعة التي قام بها المسلمون في مختلف أقطار الأرض ، حتى انه لم يكن يخلو بيت في ذلك العصر من الرقيق ، وأصبحت الجوارى في متناول كل فرد في المجتمع ، كل حسب مقدرته المادية . وكان مباحا للسيد أن يتسرى من شاء من جواريه ، ومن تلد منهن له تسمى أم ولد ،

وتصبح لها حقوق اجتماعية جديدة ، فلا يحق للمالكها أن يبيعها أو يهبها ، بل تبقى حلاله حتى يموت ، فتصير عندئذ حرة تجرى عليها أحكام الحرائر . وبطبيعة الحال كان أولاد الاماء من ساداتهن أحرارا بحكم العرف الاجتماعي . ونستطيع أن نتصور مدى تأثير الرقيق في المجتمع الاسلامي لو نظرنا فقط الى هذه الطبقة الجديدة من أولاد السادة من امائهن ذوات الجنسيات والعادات والثقافات المختلفة . ومما زاد في عظم أمر هذه الطبقة تعاقب الخلفاء من نسل أمهات الأولاد منذ أواخر العصر الأموي ، وأعتقد أن أول هؤلاء الخلفاء هو يزيد بن الوليد الذي جاء الى الحكم في أعقاب الربع الأول من القرن الثاني (عام ١٢٦ هـ) وأمه اسمها شاه آفريد بنت فيروز بن يزدجرد .

وتعاقب الخلفاء ممن أمهاتهم أمهات أولاد بعد ذلك حتى لا تكاد نعرث الا على أفراد منهم من نسل أمهات عربيات ، وخاصة في العصر العباسي . بل هناك ظاهرة تسترعى الانتباه حقا وهي زواج الخلفاء بحرائر عربيات وندرة وجود نسل منهن ، بعكس كثرة نسل الخلفاء من الجوارى ، فالرشيد مثلا تزوج بست حرائر أنجب ولدين من اثنتين منهن ، ولم ينجب من بعيتهن ، وتسرى إحدى وعشرين جارية أنجب منهن عشرة من الذكور ، وأربع عشرة بنتا . ولا بد أنه تسرى عددا آخر غير هؤلاء لم ينجب منهن . والرشيد مجرد مثال يصدق على غيره من خلفاء هذا العصر ، وهو يطلعنا الى أى مدى كان المجتمع العربي يتحول من ناحية تكوينه الجنسي ، ويستتبع ذلك تطور خصائصه النفسية والفكرية بوجه عام ، وتبدل ذوقه وميوله .

ونرى هذا التبدل واضحا في كل شيء ، في النفوس والعقول ، وفي المظاهر الشكلية أيضا .
فقد تأثرت الأرياء والأعياد بنظم الحضارات الأجنبية وكذلك

حركة البناء والعمران والأطعمة والأشربة ، وأصبح الناس في القرن الثاني يهتمون بإقامة القصور الفخمة ، وأصبح الأثرياء يهتمون بزراعة البساتين الفواحة بالشذى ، وإنشاء أحواض للسباحة ، وحدائق للحيوان . ولعل من أروع ما حكاه الرواة عن ترف البناء ذلك الوصف الذي نقله لنا عن الإيوان الذي بناه الأمين والذي كان يسافر فيه البصر ، وقد جعل كالبيضة بيضا ، ثم ذهب بالابريز المخالف بينه باللزورد ، وكان ذا أبواب عظام ومصاريع غلاظ ، تتلألأ فيها مسامير الذهب ، قد قمعت رؤوسها بالجواهر النفيس ، وقد فرش بفرش كأنها صبغ الدم ، نقش بتصاوير الذهب ، وتمائيل العقيان ، ونضد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد . وأخذت ألوان الطعام تتعقد أيضا بتعقد أسباب الحضارة حتى لقد روى طيفور أن جعفر بن محمد الأنماطى الفقيه تغدى عند المأمون فذكر أنه وضع على المائدة ثلاثمائة لون من الطعام . وتغالى الكثيرون من الأغنياء في شراء الجواهر الكريمة ، أكثر مما كان في عهد الوليد بن يزيد ، حتى أن صالحا صاحب المصلى أيام هارون الرشيد اشترى فصا من عون العبادى بعشرين ألف دينار .

ولعلنا نستطيع أن نقول ان تأسيس بغداد في أول الخلافة العباسية كان نقلة جديدة لتطور المجتمع الإسلامى واغراقه في الحضارة ومظاهرها المادية ، وانغماسه أكثر فأكثر في أساليب الحياة الأجنبية عنه ، تلك التى كانت تحياها الشعوب المتحضرة المغلوبة على أمرها . وحتى تخطيط بغداد يظهر فيه الأثر الفارسى - كما يقول عبد العزيز الدورى - اذ فصل الخليفة عن الرعية ، وجعل له مقاما ساميا يصعب الوصول اليه ، كما أن ضخامة القصر والإيوان تظهر روعة الملك ، وفكرة استدارة المدينة وحصر بيوت السلطان في أحياء منفصلة يمكن اغلاقها ليلا وحراستها بصورة دقيقة ، يشير الى السلطة المطلقة المقتبسة من الفرس ، والتي

تعارض مع أرستقراطية العرب الأمويين ، ومع الديمقراطية الإسلامية على حد سواء .

والحقيقة ان انتقال الدولة الى المشرق جعل الحياة الاجتماعية - على حد قول الدكتور طه الحاجري - معقدة مشتبكة النواحي اكثر من ذي قبل ، اذ تغالى المجتمع في انصرافه الى الناحية المادية ، فأصبح المال ميزان الرجال ، واخذ يتردد في الأمثلة الجارية في بغداد : المال مال وما سواه محال . ولهذا توسل الناس الى المال بثتى الوسائل ، لا يعفون عن محرم ، ولا يتورعون عن خبيث ، ولا يعبأون أن يتخذوا من المعانى الكريمة أسبابا يخادعون بها ، حرصا عليه واجلالا له ، حتى أصبحت مظاهر الدين شركا من شركاه . ويمضى الدكتور طه الحاجري في وصف هذا التطور الاجتماعى فيقول : ان هناك ظاهرة اجتماعية متصلة بهذه الحالة أشد الاتصال ، وتعد في حقيقة الأمر من أولى العوامل المؤثرة في قيامها ، وهى نشوء طبقة التجار الأثرياء في البصرة وبغداد ، وهى الطبقة التى تقابل الطبقة البورجوازية فى الغرب ، وكانت تلك الطبقة فى البصرة أعظم ، اذ كانت ثغر العراق والمركز التجارى الخطير الذى يصل الشرق والغرب ، والذى يستقبل متاجر الهند وجزر البحار الشرقية ، ومن أجل ذلك كانت تسمى أرض الهند وأم العراق .

وكان من نتيجة هذا الاستقرار الاقتصادى فى البصرة وهذا الثراء ظهور حركة علمية نشيطة من علماء الكلام وغيرهم ، كما نشأت فى الوقت نفسه طبقة من المجان المستهترين بجميع القيم . وظهور هذين التيارين المتضادين كان نتيجة طبيعية لتدفق الأموال وشيوع الرخاء فى هذه المدينة التجارية النشيطة .

ولم تلبث بغداد بعد انشائها أن نافست البصرة فى ثروتها ورخائها ، ولم يفغل المنصور - عند اختيار موقعها - عن أهمية الوضع الاقتصادى فى حياة هذه المدينة ، فهو يقول : « انما أريد

موضعا يرتفق الناس به ، ويوافقهم مع موافقته لى ، ولا تفلو عليهم فيه الأسعار ولا تشتد المئونة ، فانى ان أقمت فى موضع لا يجلب اليه من البر والبحر شىء ، غلت الأسعار وقلت المئونة ، وشق ذلك على الناس » .

وهذا الاهتمام الكبير باستقرار الأوضاع الاقتصادية وتثبيت أسعار السلع الضرورية التى هى عماد الناس فى حياتهم فى كل مجتمع انسانى ، قلما نجده عند خلفاء بنى أمية فى القرن الأول وأوائل الثانى ، لهذا لا نستغرب ذلك الرخاء العظيم الذى ساد الحياة الاسلامية حتى عصر هارون الرشيد ، كما لا نستغرب ذلك الثراء الفاحش الذى بلغته الدولة فى سنوات قلائل من الحكم العباسى ، ذلك ان غنى الأفراد يستتبع فى ميزان الاقتصاد غنى الدولة . وقد جاء فى بعض المصادر أن الضرائب بلغت فى عهد هارون الرشيد ما يقرب من اثنين وأربعين مليونا من الدنانير ، عدا الضريبة العينية التى كانت تؤخذ من غلة الأرض .

وبلغت جباية الدولة فى أيام المأمون أربعمائة مليون درهم ما عدا الأموال والغلات مما لا نعلم حقيقة قيمته ، ومع أن الضرائب قد كثرت وتنوعت أيام العباسيين تنوعا كبيرا الا أننا لم نسمع تدمرا بين الناس من ثقل هذه الضرائب ، والسبب فى ذلك أنها كانت تتناسب - فيما يبدو - مع الرقى الاقتصادى الذى بلغته الدولة فى شتى المرافق وخاصة الصناعة .

وكانت النهضة الصناعية من بين أسباب الثروة التى أحرزتها الدولة الاسلامية أيام العباسيين ، كما كانت من أسباب الرقى الفكرى والنهضة العملية بمظاهرها وفروعها المختلفة . وقد أسهمت فى اشاعة عنصر الرخاء والطمأنينة بين طبقات الشعب على اختلافها فى القرن الثانى ، فكان الأغنياء يقيمون القصور الرائعة التى كانت وما تزال ماثرا للخيال ، ودلالة على الترف فى أذهان الناس ممن يقرأون قصص ألف ليلة وليلة وما أشبهه .

ومما يدلنا على اختلاف النظام الاقتصادي في العصر العباسي عن نظام الأمويين تلك الملاحظة الطريفة التي سجلها ابن خلدون حين قال ان أعطية بنى أمية كان أكثرها من الإبل ، أما في عصر العباسيين فقد أصبحت الأعطية من أحمال المال وتخوت الثياب واعداد الخيل بمراكبها . وقد علل ابن خلدون ذلك بأن الأمويين كانوا يأخذون بمذاهب العرب ، وربما كان لذلك السبب نصيب من الصحة ، ولكنه ليس السبب الأهم ، فتطور الحياة الاقتصادية هو الأساس الأول لوجود مثل هذا الفارق .

والحقيقة ان تطور المجتمع في منتصف القرن الثاني بعد قيام الدولة العباسية واغراقه في مظاهر الحياة المادية ، يمكن أن يتصور في حياة الخلفاء العباسيين أنفسهم . فحركة العمران وبناء القصور الفخمة كانت ماضية في طريقها أيام المنصور وخاصة منذ ابتنى مدينته الجديدة بغداد وأخذت الثروة تتدفق اليها من كل مكان كما بينا ، ومع ذلك يجمع الرواة على أنه لم ير في دار المنصور لهو قط ، ولا شيء يشبه اللهو والعبث . وقد غضب المنصور غضبا شديدا حين سمع في قصره خادما يضرب للجوارى بالطنبور ، فقام اليه وحطمه على رأسه . وكتب عامل البريد الى المنصور بأن اليه في حضرموت يكثر الخروج في طلب الصيد ببنزة وكلاب قد اعدّها ، فعزله وكتب اليه : « ثكلتك أمك وعدمتك عشيرتك ، ما هذه العدة التي أعددتها للنكاية في الوحش ؟ انا انما استكفيناك أمور المسلمين ولم نستكفك أمور الوحش » . وحدث أن بطح المنصور كتابا له فنظر الى سراويله فاذا بها من الكتان فأمر بضربه إقائلا : لا تلبس سراويل كتان فانه من السرف . وفي عهد المنصور - فيما يبدو - بدأ ظهور الزنادقة والمجان يستشرى في المجتمع الاسلامي ، كما نفهم من سياق خبر أورده الطبري . وقد أعانت على ظهور هذه الطبقة مجموعة من المؤثرات المختلفة : من سياسية وثقافية الى جانب التأثير الاجتماعي . ولكن يظهر أيضا أن حركة الزندقة في هذه

الفترة لم تكن قد وصلت الى حد الخطر الذي يندر المجتمع الاسلامى بالانهيار .

وحين ولى المهدي الخلافة وجد خزانة الدولة عامرة بالأموال التي اكتنزها المنصور فأسرف المهدي اسرافا شديدا ، ويقول الخطيب البغدادي ان المنصور ترك في بيت المال شيئا لم يجمعه خليفة قط من قبله ، فلما صارت الخلافة الى المهدي قسم ذلك وأنفقه . وهذه الثروة الطائلة التي خلفها المنصور اعترف بها في وصيته لابنه اذ يقول له : « وانظر هذه المدينة (بغداد) قد جمعت لك فيها من الأموال ما ان تسر عليك الخراج عشر سنين ، كان عندك كفاية لأرزاق الجند والنفقات وعطاء الذرية ومصلحة الثغور ، فاحفظ بها فانك لا تزال عزيزا ما دام بيت مالك عامرا » .

وكانت شخصية المهدي أقل تزمنا من المنصور ، فكان يحب السماع ويستهتر بذكر النساء ، ولكنه كان لا يشرب النبيذ ، وان كان الطبري يقول انه لم يكن يتحرج فيه ، ولكنه كان لا يشتهييه . وقد نشطت حركة الزنادقة في عهده نشاطا كبيرا حتى لاح خطرهما واستعلن شرهما ، ولهذا نجد المهدي في أخبار عام ١٦٦ هـ يطلب الزنادقة في كل مكان فاذا اقرؤا استتابهم وخبى سبيلهم ، فلما لم تجد معهم هذه الوسيلة نراه يأمر بحبسهم . وحين عاين المهدي أن حبسهم لم ينزع ما بنفوسهم جد في طلبهم والبحث عنهم وقتلهم ، وذلك ابتداء من عام ١٦٧ هـ ، وأنشأ لأول مرة - فيما نعلم - منصب « صاحب الزنادقة » فكان فيه أولا عمر الكلوذي وعندما توفي تولى مكانه حمديوية ، وعلى يده قتل عدد كبير من الزنادقة في بغداد عام ١٦٨ هـ . أما ترف المهدي فلم يكن بالشيء الكثير ، فهو لم يتعد في هذا الميدان أن يكون أول من لعب الصوالجة في الاسلام ، وأول خليفة حمل له التلج الى مكة في أثناء الحج .

ولم تنتقل الحياة الاجتماعية نقلة كبيرة أيام الهادي ، فمع انه

كان صاحب شراب ومجون ، الا انه جد في طلب الزنادقة والقضاء عليهم طبقا لوصية أبيه المهدي ، ولكن هذه النقلة الاجتماعية الخطيرة حدثت أيام الرشيد ، اذ كانت عناصر الاستقرار في الدولة قد رسخت ، وتدفق المال اليها من كل مكان ، فاشتد اغراق الناس في ألوان الحضارة واندماجهم فيها ، وكان شعارهم في ذلك (لا تؤخر لذة اليوم لغد) كما جاء في قول هبة الله ابن ابراهيم بن المهدي وأصبحنا نجد أن عشق الرجل للمرأة وعشق المرأة للرجل لا ينظر اليه على أنه من الأخبار الشخصية التي يجب أن تكتم عن الناس ، بل نجد في هذا المضمار « عليّة بنت المهدي » تهوى خادمين في قصر الرشيد هما طل ورشا وتكتب فيهما الأشعار الكثيرة صراحة . كما نجد أيضا أن عادة شرب الخمر قد مست حتى البيئات الدينية ، فبالخطيب البغدادي يذكر لنا أن محمد بن الضو المحدث (ليس بمحل لأن يؤخذ عنه العلم لأنه كان أحد المتهتكين بشرب الخمر ، والمجاهرة بالفجور ، وكان أبو نواس يزوره في الكوفة ، في بيت خمار بالحيرة يقال له جابر) ونجد في قصر الرشيد لأول مرة ابن أبي مرزوم المدني (وكان مضحكا له محدثا فكيها) أي أنه وجد في ذلك العصر ما يسمى بمضحك الملك ، وهو منصب كان موجودا - فيما يبدو - عند ملوك الفرس الأقدمين .

ومع شيوع مثل هذه المظاهر الحضارية الالهية منذ منتصف القرن الثاني ، الا أننا نستطيع أن نقول ان الحياة الاجتماعية حتى عصر هارون الرشيد كانت قائمة على شيء من التوازن بين الجسد واللهو ، وهذا التوازن كان متحققا في شخصية الرشيد نفسه ، اذ نجد في أخباره المؤكدة أنه كان الى جانب حب اللهو والعبث والاغراق في الجانب المادى من الحضارة التي صنعتها المؤثرات الأجنبية المختلفة ، يستمتع الى نصائح الوعاظ والصالحين ، فتنهمر دموعه من خشية الله . كما كان محافظا - فيما يقول المؤرخون - على صلواته ، بل ان الطبرى يؤكد أنه كان يصلى في كل يوم مائة ركعة الى أن فارق الدنيا ، الا أن تعرض له علة . ولكن حين

ولى الأمين الخلافة فقد أثر هذا التوازن في الحياة الاجتماعية ، فصارت اغراقا في اللهو ، وانحرافا عن كل شعائر الدين ، بل لقد ظهر في هذا الخليفة أثر الشذوذ الجنسي الذي كان قد استفحل أمره في هذه الفترة ، أما اسراف الأمين واغراقه في اللهو فكان شيئا لم يسمع به القرن الأول ولا أوائل الثاني أيام الخلفاء الأمويين والعباسيين الأولين . لقد وجه الأمين الى جميع البلدان في طلب المهين وضمهم اليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس في ابتياع فرس الدواب ، وأمر ببناء ميدان حول قصر أبي جعفر في بغداد للصوالجة واللعب ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ولعبه في شتى القصور التي يملكها : الخلد ، الخيزرانية ، بستان موسى ، قصر عبدوية ، المعلى ، رقة كلواذي ، باب الأنبار ، نباري ، الهوب . كما أمر بعمل خمس حراقات في دجلة على خليفة الاسد والفيل والعقاب والحية والفرس (أو الدلفين) وأنفق في عملها مالا عظيما وقد ذكر أبو نواس في شعره بعض هذه الحراقات . وكان من أثر فقدان التوازن في الحياة الاجتماعية أيام الأمين ، وانفاقه أموال الدولة على ملذاته وملاهيته أن ظهر الاختلال واضحا في البناء الاجتماعي ، وازدادت الهوة اتساعا بين الطبقات المختلفة ، وانكشفت بغداد الفاتنة الثرية المتلألئة بالمال والجوهر عن جانبها الفقير المحطم الذي لا يجد قوت يومه .

وازدادت صورة التناقض الاجتماعي وضوحا حين حدثت الفتنة بين الأمين والمأمون وتعرضت بغداد لحصار مجهد عنيف ، حينئذ ظهر شعبها الكادح الفقير ، ولم يكن الفقير من بين هؤلاء هو الذي وصفه فقهاء العراق بأنه من كان دخله مائتي درهم في السنة ، أى ما يعادل الحد الأدنى من العطاء ، ولكن كان هؤلاء الفقراء لا يملكون من الدنيا شيئا بعد اتساع الهوة بين الطبقات ، فهم عبارة عن آلاف مؤلفة من الرعاع والشطار ، لا تربطهم بالحياة في بغداد رابطة ما ، فهم لا يملكون عقارا ولا أموالا ، بل لا يجدون عملا يقتاتون منه ولهذا انطلقوا على سجيبتهم في هذه الفتنة ،